طريقة التأريخ

بقلم ج . ل ميرز . استاذ التاريخ القديم بجامعة أكسفورد

لفظة التاريخ بأوسع مدلولاتها تعنى اكتشاف الحوادث وتسجيلها ودراستها ، فاذا قلنا ـ مثلا ـ التاريخ الطبيعى ، فلسنا نقصد أقل مما تحدثه الطبيعة فى هذا العالم المحيط بنا .

واذا ضيقنا الدائرة وجدنا أن العلوم التاريخية لا تعتمد على التجربة ، لأنها مقيدة فى النظام الزمنى ، الذى تحدث الحوادث فيه ، وعلى هذا فنحن عندما نصف الاشياء فى نظامها (التاريخى) فلا نعمل أكثر من تسجيل توزيعها فى الزمان . كما أننا اذا أردنا وصفها فى النظام الجغرافى لانعمل أكثر من تسجيل توزيعها فى المكان ، ومن هنا كان التاريخ شقيق الجغرافيا كلاهما يعنى بالحوادث وترتيبها ، وإحصاء أسبابها ونتائجها .

والشائع أننا اذا تحدثنا عن التاريخ لانقصد التاريخ الطبيعى ، وإنما نقصد تسجيل أعمال الانسان ، وحتى هنا نجد الانسان يعمل أشياء كثيرة ، لايهتم بها المؤرخون إلا إذا اتفق وكانوا يكتبون عن مجهوداته الخاصة كالموسيقى والكتابة والحرب ، ونجد التاريخ العام للجنس البشرى ، يستقل به علم خاص اسمه الأنثروبولوجيا [١] وأخلاق الانسان فى الجماعة تنسب الى فرع من فروع المعرفة ، هو (الاتنولوجيا) [٢] وقد يعطى له أحيانا هذ الاسم للغير الغريب . (علم الاجتماع)

وإذا كان من الصعب تمييز التاريخ عن هذه الدراسات ، فانه من المفيد أن نذكر أننا إذا أردنا أن نسجل باختصار حقيقة تاريخية ، فما علينا الا أن نختزل هذه الحقيقة الى (اسم) و(تاريخ) . خذ مثلا : الحقيقة التاريخية المعروفة بالفتح النورمندى نرمز اليها (وليام الاول عام ١٠٦٦) كما نرمز للماء بالرمز الكيمائى (ايد) ، وفى كلتا الحالتين لايدل الرمز على صورة إخبارية ، ولا يشرح الحقائق ، والسبب الذى يجعل المبتدىء فى دراسة التاريخ يشعر بالسآمة والملال ، هو أن بعض الناس لايعرفون أن الاسماء والتواريخ ماهى الا رموز ، وهم لذلك يعتاضون بها عن المعرفة التاريخية فى ذاتها .

ومع هذا لانستطيع العمل بغير التواريخ ـ مهما كان حظها من الضبط والاتقان وإلا فكيف نستطيع معرفة النظام الذى سارت الحوادث بمقتضاه ؟ وكيف نقدر مدتها أو مدة الفترات التى بينها ؟

---

[١] علم الانسان [٢] علم الجماعة

وكذلك الحال فى الأسماء، إذ بغير أسماء الأقوام، والأمكنة والأفراد بنوع خاص، لا تتأتى لنا معرفة ماحدث فى تاريخ معين، ولا من أحدثه ولا أين حدث، بل ولا الناس الذين اشتركوا فيه أو أحسوا نتائجه.

من هنا كانت أسماء الافراد وأعمالهم من أهم حقائق هذا النوع من الدراسة، حتى عرف أحدهم التاريخ بأنه وصف تأثير عظماء الرجال، ذلك لأن الجزء الأكبر من التاريخ لا يعنى بتسجيل الأشياء الثابتة، بل يعنى بتسجيل التغير، وهذا وحده هو السبب الذى يجعلنا نوجه التفاتنا إلى عظماء الرجال، لأنهم عوامل الأحداث الكبرى وأدواتها.

وقليل من يدرك أن الهمج والمتوحشين يندر حدوث التغير بينهم، فكل شيء عندهم ثابت محدود بطرائق الحياة، مقيد بالعرف، وهم لذلك يخافون الانقلاب، ويكرهون محدثيه ويعاقبونهم؛ ولهذا قلما تشعر هذه الجماعات بظهور الفرد العظيم، ومثلها فى ذلك مثل جماعات الغوريلا، قلما تشعر بظهور فرد عظيم!

أمثال هذه الجماعات — مع أن أفرادها من المخلوقات العاقلة — ندرسها فى الوسط المحيط بها، لأن حياتها تتلاءم مع هذا الوسط ولا تتغير، إلا كما تتغير عادات الحيوان بتغير البيئة، أو بعبارة أدق بتغير طريقة الحصول على الطعام، ولسنا نستطيع القول بأن لهؤلاء الناس تاريخاً ما، إلا اذا كنا نقصد التاريخ الطبيعى الذى بدأنا به، والذى يبحث فى اعمال الحيوانات على السواء.

إلى جانب هذا نذكر أزمنة «ماقبل التاريخ» ونقصد بها مراحل التطور التى مرت بها حتى الجماعات «التاريخية» نفسها، وهى بعيدة عن معرفتنا المباشرة، لأن أولئك الناس أو أسلافهم لم يتركوا لنا أثراً كتابيا نعتمد عليه، ولا يسعنا دراستهم إلا باكتشاف أدواتهم ومساكنهم، وأعمالهم الفنية التى قدر لها أن تصل الينا، ومهما وصلنا بهذه الطريقة، إلى فهم الاختراعات التى ابتكروها والتحسينات التى ابتدعوها فلن نصل إلى معرفة أسماء أو تواريخ.

فاذا مررنا بمرحلة ماقبل التاريخ وما يتبعها من المراحل البدائية أو القريبة من الحيوانية، فأنهم يتركون خلفهم الثابت ويدخلون إلى «الوجود التاريخى» ويقعون تحت التغيرات المتعاقبة المستمرة فى التواريخ، وفى النظم الاجتماعية، بل ويقعون تحت تأثير «الشخصيات التاريخية» وهذا بالطبع لا يحدث لهم فجأة بل بالتدريج.

ونحن نعرف فى أغلب الأحيان الكثير عن تجارة جماعة ما، وفنها وصناعتها، قبل أن نعرف لغتها أو نظامها الاجتماعى، ونجد أن معظم الذين لعبوا دوراً كبيراً فى التاريخ بدأوا عهدهم «التاريخى» بما يشبه الأزمة أو الانقلاب.

عن كتاب «فجر التاريخ» عبد الحميد يونس